**المحاضرة الثالثة: مناهج الاكتشاف**

**منهج الحدس بين الغزالي وديكارت**

الحدس في اللغة هو الظن والتخمين والتوهم. وفي الاصطلاح هو الطريق المباشر إلى المعرفة، وهو إدراك الموضوع الذهني أو العيني دفعة واحدة بدون واسطة. وهو عند ابن سينا سرعة الانتقال من معلوم إلى مجهول، وعرّفه الجرجاني بأنه سرعة انتقال الذهن من المبادئ إلى المطالب. والحدس عند ديكارت هو التصور الذي يقوم في ذهن خالص منتبه لا يبقى على مجال للشك، صادر عن نور العقل. وينقلنا الحدس عند برغسون إلى باطن الشيء، بواسطة التعاطف العقلي الذي يجعلنا نتحد بصفات هذا الشيء أو الظاهرة، بحيث يتعذر أحيانا التعبير عن مشاهدتنا بالألفاظ. ولاستعمال الحدس بشكل فعال ينبغي تجنب التسرع، والتعويد على الصبر والأناة والحذر من الأحكام السابقة. وأن لا نلجأ إليه إلا بعد استنفاد الطرق الأخرى. والحدس عند أصحابه لا يتبع مراحل متتالية وإنما يحدث فجأة فهو مثل الرؤيا. وهو أنواع.

**1 ـ الحدس الحسي:** هو اطلاع مباشر على ما تعرضه علينا الحواس من ألوان وأصوات.

**2 ـ الحدس النفسي:** هو معرفة النفس لأحوالها وأفعالها، فنطلع بشكل مباشر على ما يجري داخل أنفسنا من ذكريات وعواطف ورغبات.

**3 ـ الحدس العقلي:** هو الإدراك المباشر للمعاني والقضايا البسيطة، فندرك استحالة وجود الشيء وعدمه في نفس الوقت، وإدراك النقطة الهندسية التي لا عرض لها ولا عمق ولا طول، والتعرف على معنى الخط المستقيم الذي لا نهاية لطوله. إنه عمل عقلي يدرك به الذهن حقيقة معينة ويفهمها في وقت واحد.

**أولا: أبو حامد الغزالي**

يُعد الإمام الفيلسوف أبو حامد الغزالي أول من وضع منهجاً علمياً في تاريخ مذهب الشك، وبيّن هذا المنهج في بعض مؤلفاته: "إحياء علوم الدين" و"ميزان العمل"، لكن كتابه: "المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال"، هو الذي سرد فيه مراحل شكوكه، وسُبل الوصول إلى العلم اليقيني، وعرض فيه كذلك الحالات النفسية التي ذاق مرارتها في بحثه المعرفي عن الحقيقة، التي كاد أن يضيع فيها بين الشك واليقين، حتى وجد ضالته في مسلك التصوف.

يرى الغزالي أن الشك في جميع المعارف التي يتلقاها المرء أمر ضروري لبلوغ الحقيقة. يقول في كتابه: ( ميزان العمل):" الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال"، والبصر هنا دليل على القدرة على رفض المعرفة الخاطئة، كيفما كان مصدرها. والشك الذي يقصده الغزالي ليس ارتيابيا، وإنما منهجي لأنه يؤمن بوجود حقيقة، وما دفع الغزالي للتعاطي للشك، هو كثرة المذاهب والطوائف واختلافاتها وادعاءها جميعا بامتلاك الحقيقة.

ولهذا يشرح لنا الغزالي كيف أنه منذ عنفوان شبابه حتى بلوغه سن الـ 50، وهو يتفحص عقيدة كل فرقة، ويستكشف أسرار مذهب كل طائفة، باطنياً وظاهرياً وفلسفياً وصوفياً، حيث قال في كتابه: ( المنقذ من الضلال ):" وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزةً وفطرةً من الله وُضعتا في جِبِلّتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا". واتضح له أن سبب الآفة هو التقليد والتلقين، لذلك وجب الشك في ما ينتج عنهما من معارف. وهو لم يشك في العقيدة، وإنما شك في طرق تلقينها وتعليمها. حيث يقول في كتابه: (المنقذ من الضلال): "رأيتُ صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام".

ثم يهاجم الغزالي الحواس بسبب خداعها، ويقدم عدة أمثلة على ذلك في كتابيه: "معيار العلم" و"المنقذ من الضلال". واتضح له أن التخلص من التقليد والتلقين والتسلح بالشك الموصل للحقيقة ليس كافيا، فظهر أن عدو الحقيقة الآخر هو الحواس. يقول الغزالي في "المنقذ من الضلال": "من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفي الحركة؟... هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته. فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا".

ثم يتأمل الحقائق الرياضية التي تمثل المعارف العقلية خير تمثيل، فيجدها هي بدورها غير يقينية، ويتصور حوارا بين المحسوسات والعقليات جاء فيه:" فقالت المحسوسات: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقا بي، فجاء حكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر في تصديقي".

وهكذا فاذا كانت المحسـوسات والعقليـات خالية من الحقيقـة فأين يمكن وجودها؟ لعلهـا تستوطن حالة هي فوق الحـس وفوق العقل وتلك الحالة هي التي حاول الغزالي اكتشافهـا.

وظل الغزالي أسيـر شكـة وحيرته حتى قذف الله في صـدره نوراً أشـعره بالراحـة والسكينـة فبعد فشلـه مع المحسـوسـات والمعقـولات أيقن بأن – الكشـف – وحده هو السبيل الى المعرفة بل هو مفتاح المعرفة لايؤتاه إلا من أمن بالنبـوة وأقر بوجود حالة لا يستطيع العقل ادراكها وبها يتوصل الى الحقائق الخفيـة, فالعقل عاجز عن حل المعضـلات الإلهيـة والى الاعتقاد بأن الايمان المرتكز على الكشـف الباطني هو مفتاح السـعادة والمعرفة.

وهكذا بدأت طرق المعرفة لدى الغزالي بالشـك في المحسـوسـات ثم العقليـات ثم لجأ الى طريق الذوق والكشف – الحـدس – الذي يحصـل للإنسان فجـأة بلا مقـدمات حسيـة ولا عقليـة. ولهـذا تكون المعرفـة بواسطتـه قوية وصـادقة وواضحـة ومفاجئـة. هذا هو طريق الكشـف عند الغزالي وهو الطريق الصـوفي.

**ثانيا: رينيه ديكارت**

بدأ ديكارت بنقد ورفض التقليد والعادة كمصدرين للمعرفة. يقول في كتابه: (المقال عن المنهج): " تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازما في شيء ما بحكم التقليد أو العادة، وكذلك تخلصت شيئا فشيئا من كثير من الأوهام التي تستطيع أن تخمد فينا النور الفطري".

وكان هدف ديكارت مثله في ذلك مثل الغزالي وهو بلوغ الحقيقة، وهذا يجعل شكه منهجيا. يقول: " كانت رغبتي شديدة دائما في أن أتعلم كيف أميز الحق من الباطل". وهو لم يتنكر للعقيدة ولا للقواعد الأخلاقية، كان يريد بلوغ الحقيقة بقوة العقل الفطرية (وهو ما أسماه الغزالي حقيقة الفطرة الأصلية). وبعد رفضه للمعارف الناتجة عن التقليد والعادة، هاجم ديكارت الحواس وطالب بالتخلص من جميع المعارف التي يحصل عليها المرء من الحواس أو بواسطة الحواس. حيث قال: " كل ما تلقيته حتى اليوم وآمنت بأنه من أصدق الأشياء وأوثقها، قد اكتسبته من الحواس أو بواسطة الحواس، غير أني جربت هذه الحواس في بعض الأحيان فوجدتها خداعة، ومن الحكمة ألا نطمئن كل الاطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة". وبعدما عبر عن ثقته في المعرفة العقلية مقارنة مع المعارف الناتجة عن الحواس التي تبين خداعها، عاد ليشكك في المعرفة العقلية نفسها. يقول في "التأملات": " ومع ذلك فإن معتقداً قد رسخ في ذهني منذ زمن طويل، وهو أن هناك إلهاً قادراً على كل شيء، وهو صانعي وخالقي على نحو ما أنا موجود، فما يدريني لعله قد قضى بأن لا يكون هناك أرض ولا سماء ولا جسم ممتد ولا شكل ولا مقدار ولا مكان، ودبَّر مع ذلك كله أن أحس هذه الأشياء جميعاً، وأن تبدو لي موجودة على نحو ما أراها؟ بل لما كنت أرى أحياناً أن أناساً يغلطون في الأمور التي يحسبون أنهم أعلم الناس بها، فما يدريني لعله قد أراد أن أغلط أنا أيضاً كلما جمعت اثنين إلى ثلاثة، أو أحصيت أضلاع مربع ما"‏. ويرتبط نقد العقل بفكر الكائن المضل

سواء كان شيطانا أو إلها. وبما أن الله منزه مبدئيا على أن يضل الإنسان، فقد افترض ديكارت أن هذا الكائن المضل هو الشيطان، يقول: " وإذن سأفترض أن الله ليس هو من يضلني، بل شيطان خبيث ذو مكر وبأس شديدين، قد استعمل ما أوتي من مهارة لإضلالي".

ويمكن إيجاز منهج ديكارت في الخطوات التالية:

- الشك المنهجي: رفض ديكارت شك الشكاك الذي لا يهدف إلى بلوغ شيء، أي رفض الشك من أجل الشك. ووضع مبدأين لخطوته هذه هما: 1) ليبحث الإنسان عن الحقيقة لا بد له أن يشك في جميع الأشياء ولو مرة واحدة في حياته. 2) على من يشك أن يعتبر جميع الأشياء التي يشك فيها غير صحيحة.

- التحرر من جميع القيود في مجال المعرفة برفض كل فكرة ليست حقيقية.

- وضع قواعد منهجية يجب إتباعها لبلوغ اليقين، وهي أربعة: 1) قاعدة البداهة واليقين، أي أن لا أتلقى شيئا على أنه صحيح وحقيقي ما لم يكن كذلك بالبداهة أي ما لم يتسم بالوضوح والتميز. 2) قاعدة التحليل، أي أن أقسم كل مسألة إلى أجزاء لحلها على الأوجه الأحسن. 3) قاعدة الترتيب والتركيب، أي أن ارتب أفكاري وأبدأ بأبسط الأمور معرفة، وأتدرج صعودا حتى الأمر الأكثر تركيبا. 4) قاعدة الإحصاء، أن أقوم بإحصاءات كاملة ومراجعات عامة تضمن لي أنني لم أغفل شيئا.

- وسيلتان للعقل لبلوغ الحقيقة: هما الحدس الذي هو استيعاب مباشر لطبيعة الشيء ولماهيته والاستدلال، الذي هو معرفة تعتمد على معارف سابقة أي هو نوع من الاستنتاج.

ما هو الحل الذي اقترحه ديكارت للخروج من الشك؟

يكمن الحل في الحقيقة البديهية الواضحة والمتميزة، والتي صاغها ديكارت على النحو التالي: "أنا أفكر فأنا موجود"، فالكوجيطو الديكارتي قائم على الأنا المفكرة. يقول ديكارت في التأملات:" أنا موجود ما دمت أفكر، فقد يحصل أني متى انقطعت عن التفكير تماما انقطعت عن الوجود بتاتا. إذن فما أنا إلا كائن مفكر، أي روح أو ذهن أو عقل". ويقول في المقال عن المنهج: "ولما رأيت هذه الحقيقة "أنا أفكر فأنا موجود" هي من الرسوخ بحيث لا تزعزعها فروض الشكاك، حكمت بأني أستطيع مطمئنا أن أتخذها مبدأ للفلسفة التي كنت أبحث عنها". لكن هذا الحل يرتكز في آخر المطاف على الله، يقول ديكارت: "لقد اتضح لي كل الوضوح أن يقين كل علم وحقيقته إنما يعتمدان على معرفتنا للإله الحق، بحيث يصح لي أن أقول: إني قبل أن أعرف الله ما كان بوسعي أن أعرف شيئا آخر معرفة كاملة" (التأملات، ص 56).

**ثالثا: مقارنة بين منهج الغزالي وديكارت**

ــــــ دعا كل من الغزالي وديكارت إلى التحرر من الأحكام المسبقة والأوهام والخيالات والتقليد من أجل الوصل لمعرفة يقينية من نتاج العقل وحده.

ــــــ اعتمد كل من الغزالي وديكارت على منهج أساسه الشك المنهجي. وتجلي ذلك في التخلي عن المناهج الموروثة، ورفض تعدد الحقائق والبحث عن حقيقة واحدة جلية.

ـــــ ارتبط الشك المنهجي عند الغزالي وديكارت بتجربة شخصية وجهد شخصي وتأمل فلسفي.

ـــــ انتقدا معا خداع الحواس والعقل.

ـــــ حضرت فكرة الإله المضل والشيطان المضل بشكل أقل وضوحا عند الغزالي مقارنة بديكارت حيث نجد هذه الفكرة عنده بوضوح كبير.

ــــــ لجأ الغزالي للحل الصوفي من خلال فكرة النور الذي يقذفه الله في الصدر، بينما التزم ديكارت بالحدس العقلي

ـــــ ارتبط المنهج الديكارتي بالعلوم عامة وبالرياضيات خاصة، في حين لا نجد نفس الأمر عند الغزالي الذي ركز اهتمامه على رفض تعدد الحقائق كما تدعي ذلك المذاهب والطوائف الفكرية.